مفكرة

من تاريخ شعب سينتصر

المكان : قرية حلحول المناضلة ، واحدة من قرى مدينة الخليل الفلسطينية .

الزمان : شهر تموز من عام ١٩٤٧ ، ايام تصاعد الثـــورة الفلسطينية ضد الغزو الصهيوني والامبريالي البريطاني لفلسطين .

حوالي الساعة الرابعة صباحا ، في هدوء الفجر الذي يحتضـن البيوت الامنة وكروم العنب والزيتون حيث العصافير ترقد في اعشاشها ، خشية ان يفسد عليها برد الندى هجعة الصباح اللذيذة ، وبينما اهل القرية العربية كانوا نائمين على اسطحة منازلهم يحلمـــون بشمس الحرية ، اخترقت اصوات عربات المحتل البريطاني والياته احلامهـم فتبعثر الصمت والسكون الفجري باصوات الرصاص الذي انطلق ارهابا. فهرع الشيوخ والنسوة والاطفال مسرعين الى داخل بيوتهم الطينيـة خوفا من ان يصيبهم رصاص الغدر كالعادة .

طارت العصافير عن اعشاشها ، وثارت ارض القرية وترابها بوجه اليات العدو تصفعها بالغبار لتحيل حبات الندى السبحة على اوراق الاشجار طينا يحتج على همجية الاعداء .

★

وما ان طوق العدو القرية وبساتينها من كل صوب ، حتى ارتفعت اصوات مكبرات الصوت آمرة كل من تجاوز السادسة من عمره مـــن الذكور بالتوجه الى ملعب مدرسة البنين الكائن في جنوب القرية .. ، وكل من تبقى من النساء والاطفال بالتوجه الى ملعب مدرسة الاناث الكائن في شمال القرية ، منذرة كل متخلف عن تنفيذ هذه الاوامـر باطلاق الرصاص عليه دون سؤال .

★

تجمع الشيوخ والشباب والاولاد في ملعب مدرسة الذكور ، واحاطت بهم قوات الاحتلال مدججة بالاسلحة ، تطلق النار في الهواء وحـــول المواطنين المتجمعين في محاولة ارهابية لتحطيم روحهم المعنوية تمهيدا لما سيحدث ، وارتفعت شمس تموز القائظة تلفح وجوه الشيـــوخ السمراء وعظامها البارزة . واخذت شفاههم تجف من تاثير الحـــر الشديد .. بينما الاولاد الصغار يبكون مـن فعـــل الجوع والعطش باجسامهم اللينة .. في حين جنود الاحتلال يقطفون عناقيد العنب من كروم القرية ، ويشربون البيرة قاذفين بعلبها الفارغة فوق رؤوس الاهالي المحاصرين . والذي زاد الطين بلة ان جنود الاحتلال منعوا الاهالي مـن التحرك من اماكنهم ، ولو حتى لامر التبرز او التبول . مما جعل الروائح الكريهة تمنع حتى الهواء النقي عن رئات اهلنا .

وبينما الناس يتساءلون عن سبب قدوم الجنود الاعداء وسبب تجميعهم ، توقفت امام الملعب سيارة مدنية انيقة اندفع منها ثلاثة جنود ، وفتحوا الباب ، فترجل منه ضابط انجليزي اشقر ، مـــورد الخدين ، مكتز الجسم ، ناعم البشرة .. وتقدم من رجال القرية يجيل عينيه من فوق الجموع التي اجلسها الجنود القرفصاء فوق تراب وحصى الملعـــب ..

كان الجميع ينظرون اليه ، وصمت رهيب يخيم تحسبا لكارثـــة ستنطلق من فمه ؟

وبعد صمت ثقيل ، تكلم الضابط بلهجته الاعجمية ، ونبرتـــه الحاقدة :

ـ « اهنا اندنا مالومات اكيدة انه فيه هنا سلاه » ، يقصد : احنا عندنا معلومات اكيدة انه فيه هناسلاح . « يستاملو » يستعمله الثوار . « اشان » علشان هيك « اهنا » احنا بيجمع انتو هون ، ومش لازم « واهد » واحد يخرج « كبل » قبل « اهنا » احنا « بآرف » بيعرف « السلاه » السلاح فين .

واستدار الضابط ، فهرع الجنود الثلاثة لفتح باب السيارة لـــه ، فدخل سيارته التي انطلقت بين الاتربة والغبار الثائر .. واختفت عن الانظار .. بينما عيون الاهالي ظلت شاخصة من هول ما وقع !.

★

واستمر الحال على ما هو طوال النهار ، واقتربت الشمس مـــن المغيب ، واشتد هول الصدمة على الرجال عندما اعلن المسؤول الانجليزي ان تلك الحال مستمرة دون طعام او ماء او راحة الى ان يشي الاهـل بثوارهم !.

وغابت شمس اليوم الاول ، وطلع صباح اليوم التالي ، والحال يزداد سوءا ، وحرارة الشمس جهنمية ..

فارتفع صوت رجل عجوز قد نحل جسمه حتى اصبح كالشبـــح . قائلا : « انا ادلكم على السلاح » !!؟!.

وعلا وجوه الشيب والشباب الاستغراب والاستهجان ، لاعتقادهـم ان العجوز سيدل الانجليز فعلا على مكان السلاح .

نهض شاب من مكانه متوجها نحو العجوز محاولا قتله ، لكـــن رصاص العدو كان سباقا .

وحضر الضابط الانكليزي يصرخ بسرعة : « وين ؟ ويـــن ؟ » . والعجوز يشير اليهم ان يتبعوه .. فصحبهم الى بئر ماء قائلا : « هما في البئر » .

خاف الانكليز ان ينزلوا في البئر ، فطلبوا من الرجل ان ينزل بعد ان ربطوا وسطه بحبل ، نزل العجوز في البئر واخذ يغب الماء غبا حتى ارتوى تماما . فصاح بهم ان يخرجوه، فاخرجوه .

سأله الضابط العدو :

ـ « ها ؟ لكيت ـ لقيت ـ السلاه ـ السلاح ـ »؟

فاجاب العجوز وهو ينظر في عيني الضابط وعيون جنوده المسلحين مستخفا باهتمامهم :

ـ « لا ، لم اجد سلاحا ، انا احضرتكم الى هنا فقط لاشرب » . فانهال الجنود عليه ضربا مبرحا وركلا بالاقدام حتى اوصلوه الـــى ارض الملعب خائر القوى ، غير قادر على الحركة .

وعندما رآه اهل القرية وقد عرفوا ما حدث ، علت وجوههـــم ابتسامات انبعثت من وسط الالم ، واخذوا يتسابقون عليه ليمتصوا ثيابه بحثا عن قطرات الماء العالقة بين خيوطها ..

هذه صفحة من تاريخ شعب لا بد ان ينتصر .

"هيـــثم"